❁ دور التفسير الشفهي في الإصلاح
-تحليل في ضوء نظرية العقل الفاعل والعقل السائد-

✍ د. أحمد رحماني.

أستاذ ورئيس المجلس العلمي بكلية العلوم الاجتماعية والإسلامية بباتنة

الغاية من التفسير:

التفسير الشفاهي سمة الإصلاح في الجزائر.

1-التفسير الشفاهي يغطي أكبر فترة زمنية في الإصلاح[1].خمسون عاما في رحاب الذكر والآيات صادقة لها غراء.

2- نموذج لتفسير الشيخ بن باديس، وآخر لتفسير الشيخ بيوض.

3- إقبال الإنسان الجزائري على الاستماع والإنصات للتفسير يكاد يكون طبعا، لاحظته جليا واضحا في الإقبال على تفسير الشيخ الغزالي رحمه الله في التلفزيون[2].

4-التفسير الشفاهي يمس كل الشرائح الاجتماعية ولذلك يعد عميق التأثير، لاسيما وأن الحاضرين كثيرا ما يبلغون الغائبين[3].

5-يرفع المستوى المعرفي والفقهي والدعوى واللغوي والخلقي.

الحمد لله القائل:﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾. **والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد.**

ما هو التفسير الشفاهي؟

هل حدث في الجزائر؟ من أعلامه؟ ومتى كان؟ وما أهدافه؟ وما خصائصه؟.

ما الغاية من التفسير أصلا .

تأملت مناهج المفسرين ووسائلهم وأدواتهم فوجدتها على اختلافها وتنوعها ليس لها سوى قصد واحد هو فهم مراد كتاب الله، ومحاولة نقل ذلك الفهم إلى الناس.

وبحثت في الغاية من ذلك الجهد كله فوجدته ينحصر في أمر مركزي واحد هو إصلاح حال البشرية، ووجدت مصداق ذلك في قول الله تعالى:﴿ وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ وفي قوله :﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾.

ولا شك أن غاية التفسير في الجزائر لا تختلف عن غاية المفسر في كل زمان وفي كل مكان، يقول الشيخ بيوض:"جعلت تفسير كتاب الله عمدتي في الدعوة إلى الله"[4].

ويقول في موضع آخر:"دروسنا ومواعظنا يجب أن تكون في الأمراض التي ابتلينا بها لمعالجتها ".

وقد مورس التفسير في الجزائر منذ أن عرف الإسلام في هذه الديار كتابة ومشافهة، ولا شك أن الهدف الأساسي واحد في جميع الأحوال وهو إصلاح حال البشرية، ولكن تركيز التفسير الشفاهي على تفاصيل هذا الأمر تبدو أكثر وضوحا وجلاء منها في التفسير المكتوب.

ودونك إن شئت التأكد تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس، وتفسير الشيخ بيوض، وتفسير الشيخ الغزالي وهي كلها تعد من التفسير الجزائري، لأن التفسير الشفاهي يتميز بميزة المحلية أكثر مما يتميز بالجنسية، ذلك لأن المشافهة تقتضي مراعاة مقتضى الحال، كالخطابة تماما، وإلا فقد التفسير معناه وهدفه من الإلقاء.

إذن أمامنا ثلاثة تفاسير جزائرية ذات طابع شفاهي سنعتمدها –في هذا المقام المبارك– لبيان صور إصلاح حال البشرية في المجتمع الجزائري خاصة.

ومن حسن حظ هذا الشعب، بل ومن حسن حظنا في هذه الجلسة أن كانت هذه التفاسير موزعة على فترات زمانية طويلة بحيث يمكنها أن تغطي ما يقرب من ثلاثة مراحل مختلفة في أمراضها وعللها، ومن ثم اختلفت طرق توجيه دلالة النص، تبعا لتلك الأمراض والعلل المتغيرة، واتفقت تبعا لعمق الثابت في دلالة النص تبعا لطبيعة مقتضيات الثوابت الإسلامية.

ونظرا لاختلاف المراحل واختلاف العلل واختلاف البيئة أحيانا كما هو الحال في الفرق بين البيئة التي فسر فيها كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد الغزالي والشيخ بيوض، أقول نظرا لذلك كله فإن التفاسير ستكون غنية بالنماذج الإصلاحية وثرية جدا.

ولكي نفهم هذه المسألة فهما جيدا أستسمحكم لحظة لأرسم أمامكم، ومن ثم –كما قال أستاذنا مالك بن نبي– على سيورثكم الجوانية هذا الشكل الذي سنحلل في ضوئه عملية الإصلاح عن طريق التفسير الشفاهي للقرآن الكريم .

- العقل السائد.
- العقل الفاعل.

أمامنا في هذا الشكل العقل الفاعل يبرز إلى الأمام، وذلك دلالة على تميزه على العقلية السائدة، وهذا التميز بالضبط هو ما يجعله قادرا على أن يرى العيوب ويفحص المريض، ويقف على طبائع الشعوب وطبائع الأمراض، فيعمد إلى التركيز –أثناء عملية تفسير النص القرآني– على تشريح المريض ليقدم له العلاج الناجع.

ومن الطبيعي أن يكون التركيز تابعا لتغير المراحل فنجد العقلية السائدة تتغير زمانا ومكانا، وظروف التحدي تتغير تبعا لها، مما يستدعي –ليس فقط– اختيار النص المناسب، ولكن –وهو الأهم– توجيه النص ليركز على الدلالة المرجوة.

ونستطيع أن نتصور العقلية السائدة في فترة إلقاء الشيخ عبد الحميد بن باديس تفسيره كيف كانت؟ وكيف كانت العقلية السائدة في الجنوب وبالضبط في ولاية غرداية حين كان الشيخ بيوض يلقي تفسيره؟.

ثم إنكم جميعا تتذكرون العقلية السائدة وقت أن كان الشيخ الغزالي يلقي تفسيره على أمواج التلفزيون، فيمس أحاسيس تلك العقلية السائدة، ويحرك أفكارها؟.

هل تصورتم معي تغير العقليات السائدة في كل هذه المراحل الثلاثة؟

حسنا أستسمحكم إذن لنلخصها في كلمات وجيزة لنبين أن العقلية السائدة في فترة ابن باديس كانت تعج بأفكار قابلية الاستعمار، وأفكار الطرقية، والصوفية، وفترة الشيخ بيوض الأولى كانت كذلك، أما الثانية فكان يسودها على المستوى الرسمي الأفكار التي تدندن حول الاشتراكية، ويسودها على المستوى الشعبي الانغلاق على المذهب الإباضي، والشعور بالتخوف من الانفتاح على المالكية مما أدى إلى صراع وعداوة بين الاخوة المؤمنين، مما سيجعل خطاب التفسير مضطرا لأن يركز على دلالة الأخوة في قوله تعالى:﴿ إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾.

أما فطرة الشيخ الغزالي فإنها كانت تتميز بالعقلية السائدة التي تجمع بين المتناقضات التي تصب في أعماق الشعب عوامل التوتر المختلفة، مما جعل

الشيخ الغزالي يهرع إلى التفسير الموضوعي، لأنه أكثر مناسبة لعلاج مثل هذا المرض العضال.

لقد تبين لنا بعض الشيء في هذه العجالة كيف كانت العقليات السائدة تختلف؟ وكيف كانت تستدعي تفسير مشاكل لكل مرحلة على حدة؟.

والآن علينا أن نأخذ نماذج لصور الإصلاح، عن طريق تفسير النص القرآني عند كل شخصية على حدة.

أولا: نموذج للشيخ عبد الحميد بن باديس.

النموذج الذي سنأخذه للشيخ سيكون من تفسيره لسورة الإسراء وهو قوله تعالى:﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ قال:"فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا له، فذل القلب وخضوعه، والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلا لله فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده، ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده، ومن ألقى قياده بين مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده، ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده"[5].

إذا عمدنا لتحديد مرتكز التفسير وجدناه في العقيدة، وهذا أمر عام نجده عند كل مفسر لهذه الآية، ولكن ما هو متغير وخاص هنا هو التركيز على "تعداد" حالات الانحراف في العقيدة، فالمفسر لم يتخذ مرجعيته في هذا من الأثر، بما في ذلك نص القرآن، أعني لا يحدثنا عن صور الشرك التي ذكرها القرآن بالنسبة

للشعوب والأمم الغابرة، وإنما يتخذ مرجعيته هنا من الواقع الذي يعيشه وفهم هذا الأمر يستوجب وضع النص في سياقه الزماني.

إن النص ألقي في قسنطينة سنة **1930**[6]. ومنطقة قسنطينة هي التي عاش فيها صراعا عنيفا مع العقلية السائدة الذي كانت تغذيها الحركة اليهودية والاستعمار الفرنسي، وكانت هذه العقلية السائدة مرزوءة في عقيدتها التي يعدها ابن باديس أصل الإصلاح، ومن ثم ركز عليها كثيرا، والنص يعدد صور الانحراف التي لا تدل إلا على سذاجة في التفكير، وخضوع للبدع والخرافات التي كان أهل الطرقية – وعلى الخصوص الجاهلون منهم– ينشرونها، كالانقياد الأعمى لشيخ الطرقية واعتقاد النفع والضر من البشر الخ.

ويؤكد هذه الفكرة في موضع آخر تحت عنوان:"تحذير وإرشاد" قائلا:ما أكثر أن تسمع في دعاء الناس:"يا رب والشيخ" "يا رب وناس ربي" يا رب والناس الملاح، وهذا من دعاء غير الله مع الله، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده، وأنف الشرك راغم[7].

في سنة **1932** سنلاحظ أن خطاب التفسير سيتطور عند الشيخ ابن باديس تبعا لتطور معطيات العقلية السائدة، فنحن الآن أمام تفسير قوله تعالى:﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾ سورة الفرقان. الآية**29**. ففي هذا الخطاب يأتي عنوان ملفت للانتباه هو "تطبيق" وتحته يلقي على أسماع الجماهير مايلي:" كما يفتتن الفرد بالفرد كذلك تفتن الأمة بالأمة، من ذلك أننا معشر الأمة الإسلامية قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم بنا، فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية، ولكن لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في

أحوال دنيانا، ففي الأولى تأتي بما يبرأ منه الإسلام وتصرح بأنه من صميمه، وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر، والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد، فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام ويسخرون منه إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف فانه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجابا كثيفا لهم من الإسلام، فكنا –ويا للأسف– فتنة للقوم الظالمين، وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز إلا من نظر وأن ذلك هو هو، الذي تقدموا وسادوا به، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضررهم فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتنسيه إدراكه فيغدو ولا يفرق بين اللب والقشور"[8].

نقطة المرتكز في تفسير الآية هي الفتنة، ولكن المفسر قد وجه النص للفتنة في أعظم مستوياتها وهي (فتنة في الدين والدنيا) تؤدي إلى انتشار أمراض خطيرة منها:

1– التقليد الأعمى للغرب حتى في معائبهم، لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

2– ازدراء واحتقار الذات حتى في أعز ما نملك، لأن الشعور بالنقص يؤدي حتما إلى ذلك.

وبهذا نجد التفسير الشفاهي يعيش الواقع ويتصدى لمشكلاته كشفا وتحليلا وتفسيرا ونقدا ثم إصدار أحكام على المشكلات وتقديم نصائح للعلاج.

وأحسب أن قارئ نص ابن باديس الآن حينما يضعه في السياق الزمني وهو الفترة الاستعمارية التي برزت فيها ألسنة تخريبية مختلفة من بينها الحزب الشيوعي،

يستطيع أن يدرك سر تركيز ابن باديس على هذه الفتنة بالضبط، بل سيفهم بعمق خطورة المسألة حينما يوظف عقله الفاعل–الآن– على مشارف القرن العشرين في تحليل العقلية السائدة، لأنه سيدرك أن الأمر لم يتغير، بل ازداد خطورة، بسبب جهل العقلية السائدة للفروق الجوهرية بين الافتتان بالسليم من المعارف والثقافات والافتتان بالسقيم منها.

ومن الطبيعي أن تتطور الطروحات في التفسير الشفاهي لتمس–سنة 1939– مسألتين كبيرتين هما:

1–ولاية المرأة[9]. **التي عالجها من خلال تفسير قوله تعالى:**﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ **سورة النمل، الآية.23**

2– الشعور بالقويمية[10]. **التي حللها بصدد تفسير قوله تعالى:**﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾.

إذ لما كانت الفترة(1939) هي فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية وكان الاستعمار قد بدأ يحاصر الشعب أكثر، وتأكد الشيخ من ضرورة ربط الشعب الجزائري بالعروبة، فإن ذلك قد اقتضى توجيه النص ليركز على مشكلة الانتماء الحضاري، فكتب تحت عنوان مثير هو:"عبرة وتعليم" يقول:" عاطفة الجنسية غريزة طبيعية، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها، ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها، إذ كانت(قد أدركت) بفطرتها أن لا حياة

لها بدونهم وبلغ الإنذار، ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تذكر غدر سليمان وجنده.

فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلا بحياة قومه ولا نجاة له إلا بنجاتهم وأن لا خير لهم إلا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها[11].

إنكم تعلمون كما أعلم أن ابن باديس ليس من رجال الخيال الصوفي أو الشعري، إنما هو مفسر ومحلل ومفكر، ومن ثم فإن توجيه النص من الحديث عن النمل إلى القومية ودورها في التكاثف والتعاضد والتناصر ليس من باب الخواطر، إنما من باب إصلاح العقلية السائدة، ولذلك كانت الفقرة الثانية من هذا النص صريحة جدا، خاصة في قوله:"فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلا بحياة قومه ولا نجاة له إلا بنجاتهم..."

ويمكن أن نتساءل الآن: هل كان الشيخ يمارس التفسير مدركا للعلاقة بين العقل والفاعل والعقلية السائدة؟ أي العقل الذي يسعى إلى الإصلاح والعقل الذي يتطلب الإصلاح؟.

الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يدرك العلاقة بين عمل العقل الذي حدد معالمه القرآن وطبيعة العقلية التي تستوجب التغيير تمام الإدراك، فتراه حين يشرح قول الله تعالى:﴿ إن جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقحمون، وجعلنا من بين أيديهم سدا، ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ يصل إلى النتيجة التالية:

"لكل إنسان فطرته وعقله، فعلينا إذا دعينا إلى شيء أن نعرضه عليهما راجعين إلى الفطرة الإنسانية وإلى العقل البشري منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات فإذا كان هلاك هؤلاء بعدم الاستفادة منها فإن النجاة عندما تعرض الأمور بالرجوع إليهما، وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما"[12].

ومعنى كلام الشيخ أن الإصلاح هو إرجاع العقلية إلى الفطرة السليمة، لأن ذلك هو وحده منهج النجاة من الضلال، أما إذا بقي الإنسان بعيدا عن القرآن الكريم الذي له هذه الخاصية وهي إعادة العقلية إلى الفطرة فان أمر الإصلاح يصبح صعبا ذلك لأن الإصلاح كما يقول بصدد تفسير قوله تعالى:﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾"هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد وإصلاح النفوس بمعالجتها بالتوبة الصادقة"[13]. ثم يضيف والصالحون في قوله تعالى:﴿ إن تكونوا صالحين﴾ هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فمن شاهد منه الأعمال الصالحة وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبيﷺحكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين[14].

ثانيا: نموذج للشيخ بيوض.

وسأدعوكم في الحال لتسمعوا معي الشيخ بيوض في مسجد القرارة يلقي على مسامعكم كما ألقى على مسامع مجلس كبير يضم الرجال والنساء والأطفال خطابا

يفسر فيه آيات من سورة "المؤمنون"[15]. هي قوله تعالى:﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ الآيات5-7.

يقول:"الزوجة هي التي تتصل بالرجل بطريق شرعي أذن الله فيه ووضع له قواعده، وما ملكت اليمين هي السرية، وهذا النوع لم يبق اليوم، ومن طلب شيئا وراء الزوجة والسرية "فأولئك هم العادون" هكذا بالتعريف(العادون) المنتهكون لحرمات الله، المعتدون على حدود الله، وكأنهم هم العادون لا غيرهم، ذلك لأن فاحشة الزنى لا تفسد الدين فقط، وإنما تفسد المال والدين والعقل والجسم والبيئة.

والأوساط التي تنتشر فيها فاحشة الزنى ليس فيها أمن ولا أمان ولا سكينة ولا طمأنينة، لأن سر الجماعات الإنسانية التي جعلها الله تعالى خليفة في الأرض هي الطهارة، والطهارة تبدأ من الخلية الأولى، من بيت يتكون من رجل وامرأة، وإذا كانت هذه الزوجة الصالحة الطاهرة في وسط موبوء فاسد لا يمكن للرجل أن يأمن على زوجته، ولا للزوجة أن تأمن على زوجها، ويختلط السفاح بالنكاح حتى لا يعرف الناس آباءهم ولا أبناءهم، والويل لأمة يكثر فيها الأدعياء واللقطاء وأبناء الشوارع، الذين لم يولدوا من نطفة طاهرة حلال، طهرها شرع الله، لأن المودة بين الآباء والأبناء قائمة على دعامة العطف والحنان القائم بين الزوجين، وهذا الذي يدفع الآباء إلى تربية الأبناء.

وعطف الأب على الابن، أو عطف الأم على الابن سبب ضروري للتربية الصالحة، فكيف يمكن أن يصلح الولد وهو من نطفة حرام؟ بل أنّى يكون له العطف والحنان اللذان هما سبب الرعاية والحضانة؟

والواقع شاهد على ذلك، ولا يعلم إلا الله عدد الملايين الذين يجهضون كل عام، أو يقتلون بعد أن يولدوا، أو يلقون في الآبار والمزابل.

فأولاد الزنى على ثلاثة أقسام: قسم يجهض وهذا وأد، وقسم بعد الولادة وهذا قتل للنفس، وقسم يعيش، والويل لأمة يكثر فيها هؤلاء. وهذا من أعظم الأدلة على أن الذي قضى شهوته لا يهمه ما وقع في رحم المرأة، إذ هو قد دفع ثمنا لشهوته، ولا يقبل أن يتعلق به أحد.

وما أكثر الذين يرغبون عن الزواج لفساد البيئات، إذ لا ثقة لهم في المرأة، وهم يعتقدون جزما أن النساء خائنات، لأنهن نشأن وعشن وسط الخيانة، حتى أصبح من الصعب على أولئك أن يدخل في عقولهم أن هنالك مجتمعات فيها نساء صالحات عفيفات لا يعرفن الخيانة الزوجية.

هذا الذي جعل الشاب المعاصر(1965) لا يرتبط بالزواج مع امرأة وليس له رغبة في تكوين بيت وأولاد، فيرضى أن يعيش كالبهيمة، يشبع غريزته كلما لاحت له شهوة، وإذا قيل له:إن هذا الولد ابنك ، ينكر ذلك تماما.

حتى هذه المرأة التي تحمل من حرام، بالرغم من عطف الأم الشديد على الولد، فإنها تفقد كل حنان أو إحسان نحو هذا الولد، ولذلك فهي لا تجزع من إسقاطه أو قتله، بل هي التي تقوم بقتله جنينا في بطنها، أو ولدا بعد ميلاده. فأين الحنان الذي هو أمر ضروري للتربية؟.

هنالك بعض الأمم ترعى هؤلاء اللقطاء بدعوى حمايتهم، وهذا ما يجب، إذ لا يجوز قتل هؤلاء، ولكن يجب أن تعاقب الأم بإقامة الحد عليها، وعلى مرتكب الجريمة إن عثر عليه، لا أن يحسن إليهم كما تفعل بعض الأمم. لأن هذا تشجيع على الفاحشة وتزيين لها، وهذه هي المصيبة الكبرى، والفساد المبين الذي يستقبل العالم وهو منتشر في بعض الجهات–وقانا الله شره–، نرجو ألا يقترب منا، وقد ارتفعت في بعض الجهات أصوات ودعوات يتقبلها الملايين من الناس الذين يقولون: ما الفائدة من أن يعرف أحد أباه أو أمه، الأولاد كلهم أولاد الدولة هي التي تربيهم، وإذا قيل: هذا ولد من؟ قيل ولد الدولة.

ولكن هل تصلح الدنيا وتقوم على هذا؟.

ألهذا خلق الله الإنسان؟.

أهذا هو الإنسان الذي يصلح خليفة الله في الأرض؟.

وما السبب الذي أوصل إلى هذه الحال؟.

السبب في كل هذا هو فاحشة الزنى، فلو اتبع أمر الله واختص كل رجل بكل امرأة، وكان الزواج شرعيا، وكان النكاح طاهرا، فإن القلوب كلها تمتلئ بالحب، وحينئذ تتكون الخلية الطاهرة، والأسرة الطيبة في المجتمع.

وإذا أقيم الزواج على أسس نظيفة صحيحة فإن البيت يكون طاهرا، فيسعد الأبوان بولدهما، وينشأ بينهما صالحا في الغالب.

وقد ورد في الأثر أن ولد الزنى لا يدخل الجنة، ولكن هذا جريا على الغالب، لأن النبتة الخبيثة لا تكون إلا خبيثة، فولد الزنى ليس له من يعتني به حتى يصلحه ويربيه، وليس له من يقيه من النار، وقد تدخل أمه النار بسببه، من أجل شهوة

قضتها في الحرام إذا لم تتب. وإلا فإذا رأينا ولد زنى نشأ صالحا فليس لنا أن نقول فيه شيئا.

وإذا انتشر الزنى فهو كالنار في الهشيم ليس هناك ما يضبطه حتى يعم ويحدث ما نراه ونسمعه ونقرأه عن بعض البلاد. ولا تستحي الجرائد أن تنشر أسماء الأولاد الذين ولدوا ولادة غير شرعية، وبهذا تكونت في نفوس الكثير المصيبة الكبرى، التي هي عدم الطمأنينة بالزوجة، فعزف الناس عن الزواج، فترى الواحد منهم يصل سن الأربعين ولم يتزوج، حتى إذا قيل له: لماذا لم تتزوج ؟ لم أجد المرأة التي تصلح بي وأطمئن إليها، فالتي أعزم على الزواج بها يحدثني قلبي بأني سبقت إليها، وبأنها ستخونني.

والذي بلغ سن الأربعين ولم يتزوج لا يعلم إلا الله كم من زوجات خن أزواجهن بسببه هو واتصل بهن، فكما أنه يخون فإنه يعلم أيضا أن الآخرين يخونونه، ويعلم أنه إذا تزوج فإن الناس يفعلون بزوجته مثلما فعل هو بزوجات غيره، وهذا الذي صار يهرم عليه الكبير، وينشأ عليه الصغير، وإن المفكرين لمحتارون في أمرهم، كيف يعالجون مرض عزوف الشباب عن الزواج؟.

أنتم أفسدتم أنفسكم بأنفسكم، لأنكم ربيتم أولادكم على الفساد ذكورا وإناثا، اتصل بعضهم ببعض فقضوا حاجاتهم. وقال الشاب: لماذا أتحمل عبء المرأة والولد، مادام في جيبي دينار أقضي به حاجتي متى أريد. هذا هو المرض المزمن لهذه المجتمعات.

ويقوم اليوم في أوربا وأمريكا جماعات وجرائد تكتب وتدعو إلى الزواج الباكر، ولكن ما حيلتهم؟.

والفرد منهم لا يتزوج إلا بعد أن يخالل الكثير من النساء، حتى يلتصق بواحدة، بسبب ما كان بينهما من ولد، وكم من مرة نسمع أو نقرأ أن فلانا احتفل بزواجه من فلانة، وعمره سبعون سنة، وعمرها هي ستون، وقد عاشا معا قبل هذا الزواج ثلاثين عاما.

فهل هناك فساد في الدنيا أخطر من هذا ؟

وهل يمكن لبني آدم أن يعيشوا في الدنيا كقطعان الأغنام؟.

لا ليست طبيعة الإنسان كطبيعة البهائم الأخرى، ولكن هؤلاء ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ سورة الفرقان، الآية44.

هذا ما اعتبره الله تعالى حين خص هذه الفاحشة بالذكر دون سواها، التي تدخل في مفهوم الزكاة، لأنها تتصل بالأنساب، وتهلك الحرث والنسل، ويصبح الإنسان بسببها كالبهيمة بل أخس وأضل من البهيمة.

والعلم كله مجمع على قاعدة لا تنقض أبدا، وهي أنه ليس هناك ما يقوم الإنسان، ويثبت به بشريته وإنسانيته إلا شيء واحد وهو التحكم في شهواته البهيمية، فمن كان عقله متحكما في شهوته فهو بشر حقا، ومن كانت شهوته متحكمة في عقله فهو أقل درجة من البهائم، لأن البهائم لا عقل لها إذ هي شهوات بلا عقول، وما الذي يوقع البشر في هذه الفاحشة إلا كون أزمة عقولهم بأيدي شهواتهم.

هكذا وصف الله تعالى عباده المفلحين أنهم ﴿لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾، لا يلام أحد إذا تزوج، وقد أباح الله

له أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، أو أن يترى ما شاء إذا كانت له إماء، وكل من استعمل هذه الشهوة كيفما كانت صورتها، إلا ما أذن الله تعالى فيه وهذا محصور ومضبوط.

إن الشيخ بيوض يركز في هذه الآية على مرض اجتماعي خطير بدأ يسري في المجتمع، وحين يسري المرض فإن معنى ذلك أن العقلية السائدة قد قبلته، وأن على العقل الفاعل أن يصلح هذه العقلية ليتغير المجتمع، فيعمد إلى سلوكه ليغيره طبقا للسنة الربانية في الخلق تلك التي كانت الآية: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ تعبر عنها بدقة متناهية جعلت المصلحين جميعا يجعلونها قاعدة لمنهجهم في الإصلاح، بل جعلت مفكرا جزائريا كبيرا هو الأستاذ مالك بن نبي يتخذها محورا لدراساته عن الحضارة ومشكلاتها.

وليس من شك في أن أحسن وسيلة لتغيير العقلية السائدة هي استخدام العقل النظري الفاعل للنص القرآني لما فيه من قوة يستمدها من أصالته من جهة، ومن قدسيته في نفوس المستمعين من جهة ثانية. هذه القدسية التي تؤدي في الغالب الأعم إلى تغيير العقلية ومن ثم تغيير السلوك.

ولكم أن تتصوروا الآن كيف سيكون المجتمع الإباضي بعد سماع هذا الدرس؟ وكيف سيتخذ موقفا من جريمة الزنى موقفا صارما؟.

ولكن ألا تتساءلون عن الصورة التي كان عليها المستمعون؟ الجو يسوده الهدوء لا نسمع إلا صوت شيخ، وقد يرسل من المحراب دافئا ليلمس الآذان، ويمر إلى العقلية السائدة للشباب والشابات، للشيوخ والعجائز، فإذا هو يحركها بلطف ليوقظ الضمائر الميتة فتنتفض لترى السلوكات حولها بصورة بائسة تستحق الرثاء.

لقد عرفت أن "الأوساط التي تنتشر فيها فاحشة الزنى ليس فيها من أمن ولا أمان ولا سكينة ولا طمأنينة، لأن سر الجماعات الإنسانية... هي الطهارة...والويل لأمة يكثر فيها... أبناء الشوارع الذين لم يولدوا من نطفة طاهرة"[16].

وعرفت كذلك:"أن أكثر الذين يرغبون عن الزواج يعتقدون جزما أن النساء خائنات... حتى أصبح من الصعب على أولئك أن يدخل في عقولهم أن هناك مجتمعات فيها نساء صالحات عفيفات"[17].

عرفت ذلك وغيره فأدركت طبيعة المرض وأدركت طبيعة العلاج فلم يبق لها إلا أن تنقذ نفسها، وهكذا يبدأ إصلاح أحوال البشر.

إن ميزة هذا التفسير الشفاهي الأساسية هي ارتباطه بواقع الناس وحياتهم اليومية، لأن المفسر–باختصار– واحد منهم، غير أنه خرج برحمة من الله من دائرة العقلية السائدة، فرأى الحق فاتبعه ورأى الباطل باطلا فأنكره، فكان ذلك تجسيدا لقاعدة الحديث الشريف:"إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها".

ولكي يحقق المفسر هذا الأمر لابد أن يستخدم اللغة الملائمة والتشبيه الملائم والمقارنة المناسبة، لأن مقتضيات الأحوال هي التي تتحكم في التفسير الشفاهي.

وهكذا كانت لغة المفسر في الأساس تجمع بين مستويات ألسنة ثلاث هي الفصحى والدارجة واللهجة المحلية، لأن ذلك يساعد على إفهام كافة الطبقات الحاضرة من النساء والرجال، العامة والخاصة[18].

ولما كانت الفواحش من فعل الجاهلين للشرع، وهم في الغالب الأعم من العامة، فإن ذلك يقتضي استخدام اللغة التي تمس عقولهم وقلوبهم لتوقضها.

وأمر الإصلاح يقتضي كذلك التمثيل بالأمم لذلك بين –كمقارنة– أن "هنالك بعض الأمم ترعى هؤلاء اللقطاء بدعوى حمايتهم، وهذا ما يجب، إذ لا يجوز قتل هؤلاء، ولكن يجب أن تعاقب الأم بإقامة الحد عليها، وعلى مرتكب الجريمة إن عثر عليه، لا أن يحسن إليهم كما تفعل بعض الأمم، لأن هذا تشجيع للفاحشة وتزيين لها، وهذه هي المصيبة الكبرى"[19].

والآن لنضع هذا الخطاب التفسيري في سياقه الزماني، ولنتساءل متى فسر هذا النص؟.

محرر التفسير، الأخ الكريم "عيسى بلحاج" يذكر في مقدمة الجزء الخامس أن تفسير سورة "المؤمنون" كان سنة **1966** في مسجد القرارة[20]، وهذه الفترة الزمنية على الخصوص كانت تتميز كما ذكرنا بانتشار إيديولوجية مهمتها التحريض على الفواحش، ولهذا كان لزاما على المفسر أن ينبه لخطورة ذلك قائلا:"ولا تستحي الجرائد أن تنشر أسماء الأولاد الذين ولدوا ولادة غير شرعية، وبهذا تكونت في نفوس الكثير المصيبة الكبرى، التي هي عدم الطمأنينة بالزوجة فعزف الناس عن الزواج، فترى الواحد منهم يصل سن الأربعين ولم يتزوج"[21].

ومع انتشار الفواحش تنتشر أوبئة أخرى كالرشوة، ولهذا كان من الواجب أن يعرج المفسر عليها في معرض تفسيره لقوله تعالى:﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ قائلا:"ومن غريب ما سمعته عن قضية كان الحق فيها ظاهرا، ولكن القاضي نادى على الخصم الذي حكم عليه فقال له:"إن الحق معك، وقد أعطيتني **20.000** ولكن خصمك أعطاني **100.000**، وأنا أب لأولاد لا أستطيع أن أترك

هذا المبلغ يفلت من يدي، ولكني قد تركت لك الباب مفتوحا لاستئناف الحكم فاطلب الإعادة"[22].

وفي هذه الفترة انتشرت أفكار خطيرة ونظريات غريبة عن العقل الإسلامي النظيف منها نظرية داروين حول أصل الإنسان، وقد دعا ذلك إلى أن يقوم المفسر بتوضيح خطأ هذه النظرية، وهو بصدد تفسير قوله تعالى:﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾فقال بعد كلام طويل"... إذن لاحظ لهذه النظرية مطلقا، وإنما أطلت في هذا، لأن مثل هذه النظرية منتشرة في الكتب التي يقرأها الشباب، فاعلموا أنها باطلة مناقضة لنصوص القرآن...ونقضها العلماء، لأنهم وجدوها باطلة، فإياكم أن تعلق بأذهانكم، أو تعتقدونها، وكل من صدقها أو اعتقدها فقد كفر"[23].

وفي هذه الفترة كان العقل العربي قد سكر على المستوى الرسمي، فابتلعته الشهوات وعاش حياة الترف. فكان على المفسر أن يغتنم فرصة تفسير قوله تعالى: ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ليبين أثر الترف في الحياة الإنسانية ومن ثم العربية، فقال بعد تحليل الظاهرة:"ومن غريب ما قرأت في صحيفة أن تقام حفلة في مصر لأم كلثوم المغنية الشهيرة، ويأتيها كثير من مترفي العرب من مختلف أنحاء الدول العربية ومن مختلف جهات مصر ليحضروا ليلة غناء ثم يرجعون، ترى هل ليس في هذه البلاد فقراء حفاة عراة جياع البطون"[24].

والآن بعد هذه الأمثلة يمكننا أن نتساءل:هل كان الشيخ بيوض على وعي كامل بأنه يمارس نظرية تغيير العقلية السائدة بعقله الفاعل الناقد؟.

إن الشيخ يدرك ذلك تماما ولذلك قال في معرض تفسير قوله تعالى:﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا الخاسرون﴾ **"حقيقة، إن قلوب العامة وعقولها مأخوذة، حتى إنه لم يبق لها تفكير أو إدراك"**[25].

ثالثا : نموذج للشيخ الغزالي.

وسنتوقف لحظات عند تفسير قوله تعالى:﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾**سورة القصص، الآية23-26.**

التفسير[26].

"اتجه موسى بعد أن فر من مصر إلى شاطئ البحر الأحمر، ...اتجه إلى الله، غريب مستوحش، يطلب من الله أن يأويه وينصره قد أوى إلى الظل، وقال:رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير.

أنا أريد أن أشرح مسلك نبي كريم أو شاب مرشح للنبوة، كما أعلمنا الله بعد ذلك أنه سيكون نبيا أو كان نبيا، أريد أن أشرح كيف كان يسلك؟ كيف كان مسلك هذا الشاب مع من رأى من النساء والرجال؟

هو راقب الموقف فوجد بنتين ضعيفتين، لا تستطيعان أن تسقيا لغنمهما، قالتا نحن لا ندخل في الزحام حتى ينتهي هؤلاء السقاة.

لا نستطيع أن نسقي لأنفسنا، وإنما قمنا بهذا العمل مكان أبينا لأنه شيخ كبير لا يستطيع أن يعمل.

امرأتان تعملان في الرعي تكلم معهما رجل نبيل القلب عفيف النفس، عرض عليهما عمله في أدب ورقة، وفي خلق عال، وسقى لهما وذهبتا إلى شأنهما، فما فكر في شأن ردئ قط.

وعندما آوى إلى الظل كانت دعوته على هذا النحو الخاشع المهذب "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير".

بغتة على غير ما ينتظر جاءته فتاة، فتاة جاءت لتحدثه: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، هو ليس طالب أجر، هو طالب جوار، هو ليس طالب ثمن على مروءة قدمها، وإنما هو غريب يطلب من يستأنس إليه ومن يتحدث إليه."فلما جاءه وقص عليه القصص... إن خير من استأجرت القوي الأمين".

عرفت أنه قوي من طريقة رفعه لغطاء البئر، وعرفت أنه أمين من أنه ما يتبع عورة ولا فكر في شيء، كان الرجل (الأب) رجلا عظيما، عرض على موسى أن يزوجه ابنته، عمر بن الخطاب عرض على أبي بكر أن يزوجه ابنته، لما سكت عرض على

عثمان أن يزوجه ابنته، انظر إلى مسالك هؤلاء الناس سواء كانوا أنبياء أو كانوا صحابة.

إجابة الغرائز في مهاد الحلال الطيب، والتمهيد لبناء أسرة صالحة، كل هذا في بؤر شعورهم فهم قوم لا يراؤون ولا يكذبون، ليست لديهم عقد الوضاعة أو مركبات النقص كما يقول علماء النفس الآن.

العقد التي تجعل الزواج مشكلة تولد في المجتمع مع الديون والأزمات، والحفلات الصاخبة وأمور الربا التي لا معنى لها.

نبي كريم تزوج ابنة رجل صالح (الذي قيل هو شعيب والصحيح أنه ليس لأن موسى لم يلتق بشعيب، شعيب مات قبله بمدة، والظاهر أن الرجل من أسرة شعيب أو من أقاربه الذين صلحت أحوالهم وكانت لهم مكانة دينية)، لذلك رحب بموسى وأعانه.

إننا نريد من هذه الأخلاق التي شرحناها، ومن هذه الصيغ الجميلة التي عرضناها أن نتعلم منها شيئا، أنا تنقلت في العالم العربي فوجدت أن قضايا الزوجية من أعقد القضايا، لأن الأمة الإسلامية صعبت السهل وجعلت اليسير عسيرا، وقاومت الفطرة ومشت مع تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.

بسم الله ما شاء الله عندنا في مصر الجنيه الذهبي (جورج).

وعندكم هنا: باسم الله ما شاء الله: الجنيه الذهبي (لويز).

الويس ملك فرنسا، وجورج ملك بريطانيا، وراحت انجلترا، وراحت فرنسا من بلادنا، فما الذي استبقى ذهبها عندنا ليحكم تقاليدنا؟.

إننا ناس فارغون، نحتاج إلى ما نعلم به حقائق الأمور؟ لا تؤخذ الأمور إلا من سير الأنبياء.

والآن ما هي الخصائص التي اعتمدها التفسير الشفاهي عند الغزالي كما يتجلى من هذا النص؟.

أول ما يلاحظ هو التركيز على الإصلاح، والإصلاح هنا له طابعان، طابع خلقي، وطابع اجتماعي.

أما الأول فيتمثل في التركيز على مسلك المساعدة لشابتين مستضعفتين هما بنتا شعيب كما يتعارف عليه، دون أن يكون من وراء ذلك مأرب بل كان كما قال:"نبيل القلب عفيف النفس، عرض عمله في أدب ورقة وخلق عال".

وأما الثاني فيتمثل في (قضايا الزوجية) لاسيما في عرض الأب الكريم ابنته على الرجل للزواج، من جهة، والحديث عن تعلق المرأة في كل مصر والجزائر بالرموز الغريبة (جورج ولويز).

ومثل هذه اللفتات الطيبة التي يقدمها المفسر في التفسير الشفاهي تنهض بالدور الإصلاحي بقوة، لأن التفسير يلمس أول ما يلمس كافة الناس، العام منهم والخاص، الرجل والمرأة الشاب والشيخ، فضلا عن كونه ينتقل بسرعة لأنه نابع من الواقع ويعالج الواقع، والشيخ لم يسكت عن هدفه بل صرح به قائلا:"إننا نريد من هذه الأخلاق التي شرحناها أن نتعلم شيئا، تنقلت في العالم العربي فوجدت أن قضايا الزوجية من أعقد القضايا لأن الأمة الإسلامية صعبت السهل..وقاومت الفطرة ومشت مع تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان" وهو حين يحارب التقاليد

الفاسدة هنا، إنما يريد أن يصلح العقلية، لأن التقاليد سلوك تابع للعقلية السائدة في مجتمع.

وثاني ما يلاحظ هو أن التفسير الشفاهي يرتبط بالمقام، وإن كان الموروث الذي يحمله المفسر يحضر بين الحين والآخر، ويظهر ذلك من مقارنته بين الرمزين الذهبيين عند المرأة العامية في الجزائر ومصر.

وثالث ما يلاحظ هو التبسيط في الشرح، وتجنب النظريات العلمية والفلسفية التي إن عرضت فبإشارة عابرة كما في الحديث عن (العقد النفسية) "العقد التي جعلت الزواج مشكلة".

وخلاصة القول:

إن التفسير الشفاهي في الجزائر المعاصرة قد بدأ بالإصلاح العقدي على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ بيوض، ثم عرج على الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والتربوي، فلما جاءت الفترة الموالية لفترة الاستعمار تغير بعض الشيء على يد الشيخ بيوض، ولكن تغيره كان بسب تغير المعطيات الفكرية والإيديولوجية والاجتماعية، وفي أواخر الثمانينات جاء تفسير الشيخ الغزالي لينحو منحا جديدا في الإصلاح يتناسب مع طبيعة الطروحات الجديدة.

ولكن في جميع الأحوال كان التفسير يستخدم أسلوبا سهلا ميسورا يليق بالتوصل الأكثر انتشارا وأكثر فائدة، وكان الهدف دائما هو إصلاح حال البشرية.

والتفسير الشفاهي يتميز بـ:

1-المحلية.

2-الواقعية.

3-مراعاة مقتضى الحال.

4-اختيار النص المناسب للظرف.

5-توجيه النص.

6-مراعاة التدرج في الإصلاح (العقيدة أولا ثم الاجتماع ثم عناصر القوة ...).

7-يستخدم التعدد الألسني ليمس كل الشرائع الاجتماعية.

8-يحقق الاستئناس بلغة القرآن.

9-يرفع المستوى المعرفي للأمة، فقها، ولغة، وتاريخا، واجتماعا.

10-يوحد التصورات ويصححها.

الاقتـرام: إن تعميم التفسير الشفاهي خير وسيلة للدعوة والإصلاح لأنه يقوم على ضوابط، ولكن بشرط: أن يقوم به العلماء الثقات بكل ما تحمله كلمتا المعنى والثقة من معنى.

الهوامش

1- عبد الحميد 25 سنة، وبيوض 50 سنة 35-.80

2-يقول بيوض: ومن فاته درس التفسير شعر بالندم والحسرة. ص.29

3-ص 34، ص7. سورة الإسراء. وانظر ص29 حيث يبين الشيخ لماذا اختار المسجد (بحضور الناس كلهم). ص.29

4-في رحاب القرآن. ص .33

5-مجالس التذكير. ص .96

6- نفسه. ص.99

7- مجالس التذكير. ص .300

8-مجالس التذكير. ص .242

9-مجالس التذكير. ص .353

10-نفسه.ص .341

11-مجالس التذكير. ص .341

12-مجالس التذكير.

13-نفسه ص .107

14-نفسه ص .109

15-إبراهيم بيوض: في رحاب القرآن. ج 5. ص72-.77

15-نفسه. ج5. ص .73

17-نفسه. ص .74

18-نفسه 5/.1

19- نفسه 5/.74

20-نفسه 5/.1

21-نفسه 5/.76

22-في رحاب القرآن 5. ص .85

23-نفسه 5/.103

24-بيوض: في رحاب القرآن 5/.141

25-نفسه. ص 5/.143

26-نص التفسير أخذ من شريط سجل في الجزائر عن التلفزة الجزائرية سنة حين كان الشيخ يفسر القرآن تفسيرا موضوعيا.